«ميراث»سـحر خليفـة والسـؤال الكبير الملح

فصل من كتاب جديد للدكتور نبيه القاسم

" مراودة النص، دراسات في الأدب الفلسطيني "

الصادر عن دار المشرق، شفاعمرو ، ٢٠٠١

تثـيـر سـحر خليفة مـع كل رواية جديدة تصـدرها مـوجـات من النقـاشـات الصـاخبة ، منها ما يتميّز بالعقلانيّة والنقد البنّاء الـهـادف ، ومنها ما يهدف الى التجريح والتحريض والنيل من الكاتبة . والسبب ،كما أعتقد ، يعود الى الجرأة والشـجاعة التـي تعرض فيها الكاتبة مواقفها من مختلف القضايا الـتـي تطرحها . واذا كانت قضيّة المرأة العربيّـة وواقعها الاجتماعي ما أثار اهتمام سـحـر خليفة في روايتها الأولى "لم نعد جوار لكم" فـان احـتـلال الجـيش الاسـرائيلي لكامل الوطـن الفلسطيـنـي في حـزيران ١٩٦٧ جعل الكاتبة الـتـي عايشت هذا الواقع الجديد تنصـهـر في مواجـهـة هذا الواقع وتعي كلّ مـا يدور فيه، فلم تنزو في بيتها ولم تتابع رومانسية بطلات روايتها الأولى وتحلم معهن وانما نزلت الى الشـارع وعايشت الناس وتألمت معهم وبكت وهتفت وغنّت وقاومت ، ثم عادت الى بيتها لتسـجل الذي عايشـته على شكل رواية فكانت "الصبار" وبعدها "عباد الشمس" وبعدها "باب الساحة" وأخـيـرا "المـيـراث" .

هذا الانصـهار فـي مواجـهة الواقع لم ينـسـها قضيّة المرأة الملحّة ، وانّما جعلها تُخرج المرأة من خصوصيّاتها وهمومها الذاتية ورومانسيتها لتشكل عنصرا فعّالا في المـواجهة اليوميّة مع جيش الاحتلال الاسرائيلي .

ولأنّ الواقع الفلسطـيـنـي والعربي في تغيّر دائم والضغط الأسـاسـي يظل يقع على المرأة في مـجتمع تتحكم به العادات والتقاليد فقد وجدت سحر خليفة نفسـها مسوقة

لتعود الى خصوصيات المرأة وهمومها الذاتية وتواجه المجتمع الذكوري مع كل قسوته وسطوته لتقول له انّ المرأة أيضا قادرة على التحدي والمرأة أيضا تستحق الحياة بحرية وكرامة . وهكذا كانت روايتها "مذكرات امرأة غير واقعية"

اعترفت سحر خليفة أثناء الحفل التكريمي الذي أقيم لها في "دارة الفنون" في عمان "أنّ أعمالها الروائية تنتمي الى الواقعية السياسية الاجتماعية ، مضافا اليها التاريخ ، وأنها في رواياتها ترصد تحوّلات المجتمع الفلسطيني تحت الاحتلال الاسرائيلي .(دفاتر ثقافية العدد ١١) . هذا الاعتراف لا يُبرّر الموقف المسبق تجاه أعمال الكاتبة . وانما هو لصالحها لأنها بذلك وضعت نفسها تحت مجهر الناقد ليرى الى أيّ مدى استطاعت أن تتخلّص من مباشرة الأحداث وسطحياتها وتراكماتها ، وهل قدّمت لنا أعمالا ابداعية بحجم وقيمة أعمال كبار الروائيين العالميين الذين انطلقوا من الموقف نفسه المواجه للمحتل الغريب لبلادهم ؟!

هذا هو السؤال الذي سأحاول في هذه الدراسة الوقوف عنده والجواب عليه .

قصّة الميراث:

تحكي "الميراث" قصة فتاة كان والدها قد هاجر من الضفة الغربية الى الولايات المتحدة ، كشأن الآلاف من الشباب العرب ، طلبا للعمل والغنى ، وهناك تزوّج من فتاة أمريكية ليحصل على البطاقة الخضراء وعمل في مختلف الأعمال حتى كسب المال وأقام أسرة لم تعرف السعادة ، فالزوجة سرعان ما تركته ، والطفلة التي رعاها وهتفت سعيدة : (راجعين للبلاد، راجعين ، راجعين) عندما سمعت والدها يُعلن لأصدقائه بأنه سيترك أمريكا ويعود للوطن ، سرعان ما هربت منه على أثر حملها وهي في الخامسة عشرة من عمرها لتعيش عند جدّتها الأمريكية وتشق حياتها المستقبلية بنجاح وثقة واصرار فتتعلّم وتنجح وتتسلّم المراكز العليا في الجامعة . لكن حنينها الى الوطن والشرق يظل هو الضاغط الخفي على عواطفها حتى تصلها رسالة من عم لها يطلب

منها العودة لأن والدها سيموت والميراث ينتظرها . وهكذا تسارع لتعود الى الوطن الذي لم تولد فيه ولم تعرف احدا من أهله . وفي وادي الريحان في الضفة الغربية تواجه واقع الاحتلال الاسرائيلي للوطن والأهل ، وتقف على حالة الوطن والناس وترصد كل ما يدور حولها وتحاول جاهدة أن تتعايش مع الواقع الجديد وتقبله ، وتقوم ببعض المبادرات ، ولكنها في النهاية تقتنع أن البقاء في الوطن مستحيل ، فهي غريبة هنا في وادي الريحان كما هي غريبة في الولايات المتحدة ، ولكن غربة الوطن أصعب ومعايشة الناس أقسى فتقرر الهجرة والعودة الى المكان الذي ولدت وعاشت ونجحت فيه (الولايات المتحدة) ولسان حالها يردد : راجعة ، راجعة ، والله راجعة . واذ يذكرها عمّها بأخيها الصغير لمن تتركه تجيبه معلنة قرار القطيعة النهائية : البركة فيك وفي أميرة.

شفافيّة المكان وقسوته :

كان من المفروض أن يحتلّ المكان في رواية "الميراث" مكانة مهمة ويحمل دلالات متشعبة ، وقد اجتهدت الكاتبة من خلال التقابل المضاد ما بين الأمكنة أن تجسّد هذه الأهمية للمكان (فرق كبير ، مسافة طويلة ، بين نيويورك وواشنطن ووادي الريحان . وادي الريحان كانت أبدا في ذاكرتي عكس نيويورك . بلدة صغيرة ، بلدة نقيّة ، أهلها بسطاء يحبّون الخير والطبيعة ، بعكس نيويورك ص ١١) فوادي الرّيحان هي مخزون الذاكرة والعواطف والحلم والأمل والمحبة والخير . و"في البلاد متى يقع حصان نقعد جنبه ، حتى الحمار نقعد جنبه ، نسولف معه ونغنّي له كأنّه من العيلة أو الجيران . وهون ، في نيويورك ، لا عيلة ولا جيران ، كلّه بحاله ص٣٥) . لكن صورة الوطن الحلم والأمل سرعان ما تتكسر بمجرّد الوصول اليه (لفت نظري ذاك الفراغ وذاك السكون ، فلا ناس ولا سيّارات ولا أولاد ولا مارّة ، فكلّ شيء ساكن جامد هامد . حتى الكلاب أمام الدور لا تنبح ، والقطط تمشي تحت أشعة الشمس الساطعة ببطء وبلادة ،

وروائح الزبالة والزبل وعبير أشجار الكينا تشكّل مزيجا غريبا ملأني بالحزن والاكتئاب وحنين آسر) وأمام هذا الواقع المكسّر للحلم (أخذت صور الماضي وذكريات الطفولة في بروكلين تطفو على السطح وتملأ مخيّلتي بخليط أحداث وقعت وأخرى حبكتها مخيّلتي وخلتها على وشك الوقوع) ووسط هذا التقابل المضاد ما بين الماضي الجميل الأنيق في بروكلين والحاضر البائس في وادي الريحان تكون النتيجة الطبيعيّة تكسّر الحلم الذي طالما راودته في البعيد وعبثيّة البحث القلق عن (سحر البلد الذي طالما حلمت برؤيته ص٤٤) .

صدمة واقع الوطن جعلها تعود لتحن الى أمريكا وتراها أجمل (أميركا طبعا أحلى . أميركا قارة . أميركا فيها كل الألوان . أيام الربيع تصبح جنّة . زهر التفاح في واشنطن ، زهر البنفسج في فرجينا والكارولاينات الخ ص٢٥٧)

وكما يتكسّر الحلم بالوطن عند الراوية (زينة) هكذا يتكسّر وبحدة عند مازن جيفارا فهو المناضل الذي قاتل وناضل وأصيب في سبيل العودة للوطن ، واذ عاد لم يجد الذي قاتل من أجله ، وتساءل بألم :(وبعد بيروت والأضواء وادي الريحان ! وادي الريحان؟ هذا السجن وادي الريحان ؟ وهذا الكبت وادي الريحان ؟ وهذا اليأس والناس والبؤس والتخلّف ، وادي الريحان؟ أنا روحي هناك ، أنا كنت هناك وكيف وصلت هنا؟ ص٦٤) فهناك بيروت الجمال والحب والحلم والحريّة ، أما هنا في وادي الريحان فالبؤس والسجن والكبت والتخلّف .

الوطن الذي ناضل مازن من أجله وقاتل ، والذي حلمت به زينة في أمريكا وكانت سعادتها تتجسّد في العودة اليه ، يصبح المكان الذي لا تطيق فيوليت البقاء فيه أكثر وتجد في أميركا الملجأ الذي تريد الهرب اليه (ص١٣٥) ومثلها كمال المهندس الذي كان يحلم بالعودة الى وطنه ليقيم المشاريع ويعمل على تقدّمه أصبح يتسرّع الهرب من وادي الريحان والاستقرار بعيدا في الغربة حيث الراحة والاحترام والعمل والفرص

المفتوحة ، ولم يتورّع عن تشجيع أخته نهلة على ترك الوطـن والسفر معه .

هكذا نجد الوطـن : المكان الذي كان يمثّل الحلم والأمل والسعادة والـهـدف لكل واحد يتحوّل الى كابوس رهيب ، الكل يفكر بالـهـرب منه والبحث عن ملجأ بعيد في الغربة . فالمكان يفقد سحره عندما يلتقيه الانسان ، وتصبح الغربة هي الأمل والمهرب والخلاص . فالمكان يأخذ قيمته وأهميّته من الانسان فاذا تبدّلت نظرة الواحد وعواطـفه تجاه هذا المكان تتغيّر مفاهيمه ويبطل سحر وهجه . فزينة (الراوية) الـتـي حضنت الوطن طوال حياتها في الولايات المتحدة وسارعت لتلتقيه عندما دعيت اليه صدمتها مشاهد الوطن الأولى (فطول الطريق ما رأيت الاّ الزّبالة والحيطان الملطّخة بالأسود والأبيض وألوان الطراشة المبعثرة فوق الكتابة على الجدران والشوارع المملوءة بالخردة ومياه المجاري ووسخ كثـيـر ص٤٥) . وكذلك كمال المهندس الناجح الذي طالما حلم بالعودة للوطن واقامة مشاريع فيه هالته حالة الوطن البائسة وكان ينظر الى نفسه وهو ينزل في العبارة ويغوص في نضح نابلس حتى الركبة ويتحسّر على البعيد وفكّر بأنه لن يبقى وتساءل : أهذا ما حلم بأن يلقاه؟ يحيا الغربة في قلب البلد؟ ليش أنا أرجع؟ ومثلهما تكسّر حلم المحافظ بعودته الى الوطن فهو يتحدّث الى مازن بألم : (أنا كنت أحلم ، ياما حلمنا ، بس شو الفايدة! باتت الأرض غريبة . أرض الوطن باتت غربة. أرض الأحلام بلا أحلام. حلم التحرير بات شعارا لا يصل الأرض ، بل كابوسا ص٣٠٠).

الوطن الحلم ، الوطن الرمز ، الوطن الغاية ، الوطن السعادة والطمأنينة سرعان ما فقد سحره ومكانته عند الجميع بمجرّد الالتقاء به والوصول اليه . فالشّفافيّة التي نظر بها الجميع الى الوطن وهم بعيدون عنه سرعان ما اختفت وتبدلّت لتحلّ محلّها صورة الوطن القاسي الذي لا يحقّق الحلم والأمل لأبنائه .

وقد تتغيّر صورة المكان في عيـنـيّ الانسان تبعا للعلاقات الاجتماعية والثقافية والفكرية والاقتصادية وغـيـرها ما بين الناس الذين يقيمون فيه .

شخصيّات "الميراث" متشائمة وسوداويّة :

كما المكان ، الذي لم يوفّر أيّة لحظة سعادة وطمأنينة وأمل بمستقبل أفضل ، هكذا كانت شخصيات رواية "الميراث" متشائمة سوداويّة تبحث عن الخلاص الفردي بعد انكسار الحلم بصدمة الواقع الذي لا يطاق . وقد اجتهدت الكاتبة أن تأتي بمجموعة من الشخصيات المتنوعة في انتماءاتها الطبقية والفكرية والاجتماعية لتؤكد أنّ انكسار الحلم هو من حصّة الجميع . فزينة التي تركت المركز والغنى والحرية في أميركا وسارعت للعودة الى الوطن لتعيش الحياة الانسانية التي افتقدتها بالغربة والتي تلخصت على لسان العجوز المغترب الذي قال :(في البلاد متى يقع حصان نقعد جنبه ، حتى الحمار نقعد جنبه ، نسولف معه ونغنّي له كأنّه من العيلة أو الجيران وهون في نيويورك لا عيلة ولا جيران كلّه بحاله) لم تجد الاّ أفرادا متباعدين ، مجرّد زردات من سلسلة أصدأها القهر ، لكلّ همومه التي يحاول التخلّص منها . ورغم محاولاتها لتجاوز هذا الوضع والتقريب بين الأفراد والجمع بينهم الاّ أنّها تفشل وتجد الحلّ في ترك الوطن والعودة الى أميركا . ومثلها كمال المهندس الذي تألّق ونجح وتقدّم في ألمانيا وعاش وهو يحلم بالعودة الى الوطن ورفع شأنه ، وظل كلام صديقه الألماني الذي زار سوريا ومصر يتردّد في ذاكرته : (الناس هناك أحسن منّا ، لهم أصوات ، لهم أحلام وروائح . نحن هنا فقدنا الأصوات ، مجرّد ضجّة ، مجرّد آلات ، وفقدنا القدرة على الأحلام وما عدنا نشم الاّ الديودورانت والكولونيا ص١٩٣) لم يجد في الوطن الاّ الأفراد المتقاتلين والحالمين والضائعين والمسلوبين والمقهورين والرافضين للتقدّم فلم يجد من حلّ أمامه الاّ العودة الى الغربة في ألمانيا . ومثلهما المحافظ الذي انخرط في صفوف الثورة والنضال وحارب وحلم بالعودة الى الوطن ولكنه وجد (أرض الوطن باتت غريبة . أرض الأحلام بلا أحلام ، حلم التحرير بات شعارا لا يصل الى الأرض ، بل كابوسا ص٣٠٠) وحتى مازن المناضل الثوري الذي قاتل في صفوف الثورة وأصيب ، مازن جيفارا انهزم أمام الواقع

الذي وجده في الوطن ، وهرب من المواجهة بالابتعاد عن الناس ورفض العمل ، وقضى وقته في شرب الخمرة ومجالسة فيوليث والاستماع الى صوتها الجميل وعزفها الأخّاذ وبكاء الماضي الذي كان في بيروت ، حتى عندما فكّر بمشروعه الثقافي لم يخطط له كما يجب ولهذا فشل ، ووجد نفسه وجها لوجه أمام واقع الاحتلال وبنادق جنود الاحتلال لا يقوى على عمل شيء .

ولم تنجح فيوليت في أن تتلاءم مع الواقع الذي رضيت به ، فمازن خيّب آمالها ولم يختلف عن غيره من الطامعين فيها ، والبيك الكبير عاملها كعاهرة لا احترام لها ، ونهلة تهاجمها ، والناس ينظرون اليها نظرات شك واتهام ولهذا قرّرت الرحيل ووجدت في أميركا المهرب الأمين الذي اختارته .

وحتى نهلة المكافحة التي عملت في الكويت سنوات عمرها الجميلة لتساعد أفراد بيتها كي يبنوا ويتزوّجوا ويتعلموا وجدت نفسها مهزومة ووحيدة ومتّهمة من قبل الجميع ، ومع أنها رفضت ترك الوطن والهجرة كما اقترح عليها كمال ، الاّ أنّها رضيت بسمسار يكبر والدها سنّا ليكون زوجا لها لأنّها وجدت في الزواج الخلاص الأخير لها في مجتمع كهذا الذي تعيشه . ولم تختلف باقي الشخصيات ففتنة التي اعتقدت أنّها بحملها من هداسا وطمأنة الدكتور لها على صحتها وصحة المولود القادم قد انتصرت وحققت مبتغاها كان مصيرها الموت على يد جنود الاحتلال الذين منعوا سيارة الاسعاف التي تقلها من الوصول الى المستشفى . وأميرة ، أم فتنة ، التي عاشت أمجاد العروبة وعبد الناصر وثورات التحرّر وحفظت الأغاني الوطنية وسمّت ابنها عبد الناصر تيمنا بجمال عبد الناصر وجدت نفسها جدّة لولد من هداسا ، عليها رعايته بعد موت امّه . ومثلها حالة العم والد مازن وكمال فهو الشخصية النقيّة الفريدة الذي رفض بيع أرضه وبكى واقعه المر لكنه ظل يتمسك بالأمل وبتغير الحال في المستقبل ، لكنه كأميرة وجد نفسه بعد موت فتنة وسفر زينة مسؤولا عن العناية بالطفل الصغير مولود هداسا ليكبر ويرث ميراث

والده . ولم تكن حالة البيك قريب فتنة بأفضل ، فهو يعيش الماضي ويستعيد الحكايا البعيدة ، ولكنه في حاضره الآني مهزوم ومطرود ومحاصر رغم بعض الامتيازات التي يوفرها له المجتمع وحتى المحتل الاسرائيلي . وكذلك كان السمسار أبو سالم ، فرغم نجاحه في جمع الثروة وامتلاك الأراضي واقامة أسرة وأخيرا الزواج من نهلة المتعلمة بنت العائلة العريقة الاّ أنّه كان مهزوما ومطاردا ومهزوزا .

هذه الشخصيّات المهزومة داخليا وخارجيا ، الهاربة أبدا ، التي فقدت الحلم والمستقبل ، تجعلني كقارىء أتساءل وأسأل الكاتبة :

– ألا وجود في واقعنا الفلسطيني الحالي لمن يحمل الشعلة ويقود المسيرة ويؤكد على حتمية الانتصار وتحقيق الهدف ؟!

عيب المكان في رواية "الميراث" :

يتميّز المكان في العمل الروائي بتلك الخصوصيّة التي ينجح الكاتب في اقامتها بين المكان والزمان والشخصيات ، واذا كان الزمن قد غيّب في "الميراث" وظل يتراءى في الظلال البعيدة لا يؤثّر على توالي الأحداث ولا يترك بصماته على الأمكنة والشخصيات ، فان المكان أيضا بدى باهتا لا يتفاعل مع الشخصيات ، وفي أغلب المواقف كانت العدائية هي المسيطرة على العلاقة بين الشخصية والمكان . فشوارع وادي الريحان ليست التي حلمت بها زينة وهي في نيويورك ، وحتى القدس لم تشعر تجاهها الاّ شعور السائحة العابرة في مدينة لها تاريخ . ووادي الريحان مثّل لمازن السجن ونهاية الحلم والهزيمة وفقدان الحرية والحب . وبالنسبة لكمال حلم كاذب وعبّارة تفيض بالنضح ومشروع فاشل . وبالنسبة لفيوليت أمل كاذب . ولفتنة ثروة يجب عدم التفريط بها .

فالمكان يبدو وكأنّه استعير ليكون الخشبة التي تؤدي الشخصيات فوقها أدوارها ليس الاّ ، فهو يفتقد للحميمية وللتواصل مع الشخصيات ، وحتى تلك الكلمات الشاعرية الرومانسية التي تحاول بعض الشخصيات وصف المكان بها تخلو من الصدق وتكاد

تكون مكرّرة .

كان بامكان الكاتبة أن تخلق من الأمكنة التي ترزح تحت نير الاحتلال أمكنة تعبق بالعواطف والحميمية ، أماكن تنبض بكل المشاعر الانسانية تتفاعل مع ناسها وتشدهم اليها في مواجهة الغريب . فأين مشاهد الحقول والفتيات والفتية الكبار والصغار العاملين في أراضيهم ، وأين صور الحيوانات في الحقول وفي المراعي ، وأين الأطفال الذين يملأون الشوارع والزوايا بصخبهم وبراءتهم ومشاعرهم ؟ أين الفتيات الجميلات الشّادات أعناق الشباب اليهن ؟ ألا وجود الاّ لنهلة الغاضبة في غرفتها ولفيوليت الحالمة في برجها .. ولمازن المنعزل عن كل الناس .. ؟! ألم تكن العودة الى الوطن محفزا لتحدّي الواقع واحتضان الأرض والعمل لبناء المسقبل المطلوب رغم كل التحدّيات ؟

وكما امتنعت الكاتبة ، قاصدة أو غير قاصدة ، عن رسم المكان الأثير المحبوب المتفاعل مع الشخصيات فانّها لم تقدّم لنا ما يقنعنا بموقف الشخصيات من الأمكنة التي يعيشون فيها . فلم تبرز عدائية الأمكنة للشخصيات ، ولا مسؤوليتها عمّا يحيق بهذه الشخصيات ، وانّما أبقتها أمكنة محايدة تشهد ما تقوم به الشحصيات دون أيّ تفاعل أو ردّ فعل .

انّ تحييد المكان ، وتجريده من كل الخصوصيّات والدلالات لم يكن في مصلحة الرواية ، بل كان عاملا في ضعفها وافتقادها لأحد أهم عناصر تكوين العمل الروائي وهو المكان .

عَيب الشخصيّات :

يسيطر على قارىء رواية "الميراث" احساس قويّ بأن الكاتبة كانت تحمل في يدها موجّها تحرّك به شخصيات روايتها ولا تسمح لأيّ منها أن تخرج عمّا رسمت لها، بينما كان يتوقّع أن يلتقي بهذه الشخصيّات المتنوعة وهي تنبض حيوية وحرارة وتتحرّك بحريّة وانطلاق وعزيمة لا تقهر لتحقيق الغاية وتجاوز الحاضر الصعب . لكن الذي نجده أمامنا شخصيّات مرسومة بدقّة ، تفتقد حريّة التصرّف ، تتحرّك وتنطق بما حدّد لها ،

شخصيّات مسطحة لا تبشّر بجديد ، ما يجمع بينها أكثر بكثير مما يفرّق ، شخصيّات لا تدعك تتعاطف معها ، تفتقد المصداقية ، مشاعرها مزيّفة وهمومها مضخّمة ودموعها كاذبة . لم تنجح في اقناع القارىء بأنها تعيش مأساة وجريمة احتلال الغريب لوطنها ، وانّما نجدها تشكو هذا الواقع ولا تقاومه وتفضّل الهروب منه الى حيث راحة البال ورغد الحياة .

والسؤال الذي يراودني :

– لماذا تخلّى مازن جيفارا عن كل ثوريته واكتفى بالبكاء على الماضي الذي كان والحلم الذي تكسّر وآثر حياة البطالة والتسكّع وقضاء الساعات الى جانب فيوليت التي منحته من وقتها وكرمها الكثير ، وحتى عندما قرّر بتشجيع من زينة أن يقوم بعمل ثقافي كبير وفشل استكان بكل الخضوع والذل أمام جندي الاحتلال وأخذ يختلق لنفسه المبررات ؟!

ولماذا نهلة المثقفة المتعلمة العاملة التي كان من المفروض أن ترفض واقعها وتعلنها عالية خضعت وانزوت في غرفتها لتبكي حاضرها ومستقبلها ومن ثم لتجد مهربها بالزواج من سمسار خائن متزوج وله أولاد ويكبرها بعشرات السنوات ، لماذا لم تتمرّد نهلة وتتحرر من قيود المجتمع وتخرج للمواجهة وتحرّك غيرها للعمل والتحدّي ؟!

ولماذا فيوليت المتعلمة المثقفة الحساسة آثرت الانزواء مع أحلامها وجيتارها تعيش قصص الحب التي ينسجها لها خيالها ، وقبلت أن تكون محطّ مطمع الجميع بينما كان بامكانها ، ومن موقع عملها كحلاقة وصاحبة صالون ، أن تكون مركز توعية وتثوير واشعاع للجميع ؟!

ولماذا كمال الشاب المتغرّب المتعلّم الواعي انهزم أمام أوّل تجربة خاضها بعد عودته للوطن ؟ ولماذا لم يكن أكثر واقعية وتفهّما ليتحدّى الصعاب ويتجاوزها ويعيد الكرّة ليعمل على رفعة الوطن ورفاهية الناس ؟!

أسئلة كثيرة تحتاج الى أجوبة ، لكن النتيجة الحاصلة هي أن شخصيات رواية

"الميراث" لم تتميّز بتشاؤمها وسوداويتها فقط وانما بسطحيتها وبعدم قدرتها على اكتساب عواطف القارىء وتجنيده الى جانبها .

لغة رواية "الميراث" :

تكاد لغة السرد عند الكاتبة سحر خليفة أن تكون منذ روايتها الثالثة "عباد الشمس" هي نفسها لا تتطوّر من حيث تركيب العبارة والتلاعب بأزمنة الفعل واختيار اللفظة . فاللغة الرومانسية الشاعرية التي ميّزت روايتها الأولى "لم نعد جوار لكم" واستمرّت الى حدّ كبير في روايتها الثانية "الصبّار" بدأت تتوارى أمام طغيان اللغة العادية للسرد التي لم تحاول الكاتبة رغم السنوات والتجارب أن تطوّرها وترتفع بها الى لغة أرقى وأجمل وأغنى . قد تكون للكاتبة مبرّراتها وتفسيراتها وفلسفتها ، ولكن أيّ تبريرات نقبل لمثل هذا الكلام (وقام كمال مثل الأجانب حين يستبد بهم الطرب في سهرة عرب ووقف يتخوّت كالمسطول يغنّي ويرقص ويلو ح بيديه ويصفّق ويتكسّر. ص١٤٠) ومثل (وظلّ يحشر نفسه ويحاول ابعاد تفكيره عن أزمته بالتّلهي بمزيد من الشرب والتّحسيس على فخذ نهلة تحت الطاولة حتى لم يعد يطيق القعود بدون اهتزاز .ص١٤٦) ومثل (أمّا واحد خرا ، أمّا طبل كبير! ص٢٥٠) ومثل (فاستوطوا حيطها بدل المرّة مرّات وركبوها ، لكنها كانت تفاجئهم بعناد بغلة تهبّ فجأة لترفس وتعنفص وتلقي بركابها على الأرض خلال ثوان تحت الرجلين ص٢٥٠) ومثل (اندفع الدم الى رأسها وعادت اليها طبيعة البغلة فعنفصت وبدأت ترفس . ص٢٥٣).

ولا نجد ذلك البعد الشاسع في لغة الحوار بين الشخصيات للتقارب الكبير فيما بينها من حيث الثقافة والانتماء الطبقي . فاللغة التي تحاورت بها شخصيات الرواية هي اللغة الفلسطينية المحكيّة التي يتحدّث بها المتعلمون والمثقفون ، لغة رغم عاميّتها الاّ أنّها قريبة من اللغة الفصيحة البسيطة ، وقد عمدت ، كي تنوّع في لغة الحوار ، الى استعمال كلمات سوقية على لسان بعض الشخصيات الدونية مثل كلام ابنة السمسار (ص ١٨٤،١٨٥)

وابنه (ص ٢١٤،٢١٥،٢١٦)، ولكننا نجدها تستعمل الكلمات السوقية أيضا على لسان فتنة ابنة العائلة (ص ١٨٦) وفيوليت المتعلمة (ص٢٥٠، ٢٥٣) ، وحتى العم ومازن جيفارا وحتى زينة أستاذة الجامعة .

لغة الكاتبة في رواية "الميراث" لغة عادية مباشرة تفتقد للدلالات والايحاءات ، لغة سردية تنقصها الدّفقات الشعرية التي تعودناها في روايات سابقة لها . وهذه اللغة العادية المباشرة السطحية أدّت الى افتقار الرواية لمشاهد الوصف العميقة ، اذا كان للطبيعة والأمكنة أو للشخصيات ونفسياتها .

بُنيــة الرواية:

وزّعت الكاتبة روايتها على ثلاثة فصول : الجزء الأول تستعيد فيه ، وقد كبرت ، قصة حياتها في الولايات المتحدة التي رحل اليها والدها وهو شاب حيث تزوّج وعمل ، قصة طفولتها السعيدة وفتوّتها التعيسة حيث فقدت الأم والأب والابن . ثم قصة اصرارها على التّحدي والنجاح ، حيث تفوّقت في دراستها وحصلت على الشهادات العالية وعملت أستاذة في الجامعة ، ولكنّها رغم ذلك ظلّت تشعر بالحزن والغربة والضياع وتحنّ الى الوالد والوطن والناس البعيدين الذين لم ترهم في حياتها .

وتروي في الجزء الثاني قصتها في الوطن الذي عادت اليه ورأته عيناها لأوّل مرّة في حياتها ، وتصوّر ما رأته وعرفته وعاشته ، وخيبة أملها وتفكيرها بالعودة الى أميركا

أمّا في الجزء الثالث فتحكي قصة الفشل الكبير للمشروع الثقافي الضخم الذي قامت به مع ابن عمها الثوري المناضل العائد مازن جيفارا ، ومشاهد الاذلال التي يقوم بها المحتل الاسرائيلي للوطن والناس ، وثمّ رحيلها عن الوطن عائدة الى حيث ولدت الى الولايات المتحدة الأميركية .

بدأت الكاتبة روايتها بمشهد الاسترجاع حيث تروي لنا الراوية (زينة) قصة رحلتها الى الوطن في الضفة الغربية وهي في غاية الشوق للقاء الوالد والتعرّف على الأقارب

وعلى وجهها الحقيقي ، مستعيدة لحظات السعادة التي غمرتها عندما سمعت والدها قبل سنوات بعيدة في نيويورك يعلن لرفاقه أنه ينوي العودة للوطن ، كيف دخلت الى البيت وهي تصرخ مهلّلة :(راجعين للبلاد ، راجعين ، راجعين. ص١١) وأنهت الرواية بالكلمات نفسها على لسان الراوية وهي تجيب عمّها العاتب الرّاغب في بقائها : (راجعة ، راجعة ، والله راجعة . ص٣١٧) ولكن شتّان بين الرجوعين وما يحملان من معان ودلالات ، فبينما تتدفّق من كلمات (راجعين للبلاد) الخارجة من فم زينة الطفلة كل مشاعر الحنين والشوق والعواطف والرغبة في العودة الى الجذور والتعرّف على الذات نجد في كلمة (راجعة) على لسان زينة نفسها ، كل معاني الخيبة والحزن والألم والرغبة في الابتعاد عن الوطن والأقارب والناس الذين حلمت ، عمرها كلّه ، بلقائهم والعيش معهم.

وقد اختارت الكاتبة أن يكون كلام الراوية بضمير المتكلم ، لكنها سرعان ما استغرقت في معظم أجزاء الرواية بضمير الغائب ، وتركت الراوية تنقل كل الأحداث وتفاصيلها وتقدّم الشخصيات وتحلل نفسياتها وتكشف جوانب أخرى منها ، وأحيانا كانت تترك ذلك الكشف والتحليل لشخصية من الشخصيات . فمازن جيفارا مثلا، عرفنا الكثير من أخلاقه وصفاته وسلوكيّاته من خلال كلام فيوليت ووالده ونهلة ، وكذلك نهلة عرفنا الكثير عنها من خلال تعليقات الآخرين . وهذا صحيح بالنسبة لكمال والبيك وفتنة وفيوليت .

وكثيرا ما كان التداخل ما بين الضميرين (المتكلم والغائب) يدخل القارىء في دوّامة لأنّ الكاتبة لم تحافظ على مكانة الراوية كمصدر المعلومات الوحيد والعارف الكلّي . وكان من الصعب جدا على الراوية أن تدخل الى نفسيات الشخصيات ونقل كل المعلومات وسرد الأحداث ووصف الأمكنة باستعمالها ضمير المتكلّم لأنها لم تكن طرفا في كثير من الأحداث ، وكانت على الغالب ، غريبة ومرفوضة ، وعدم اتقانها للغة التي يتحدّث بها الآخرون يزيد من استحالة قيامها بذلك ، ولهذا كان يجدر بالكاتبة لو تنازلت عن

استعمال ضمير المتكلم ، وتركت الراوية تسرد القصة بضمير الغائب .

ويبقى السؤال الملح :

ما الذي أرادته الكاتبة من هذه الرواية ؟ وهل قدّمت لنا رواية بحجم وقيمة أعمال كبار الروائيين ؟

أعتقد أن الكاتبة سحر خليفة قد هدفت من وراء روايتها هذه اعلان موقفها من مجمل المواقف السياسية والاجتماعية والفكرية التي يعيشها الشعب الفلسطيني في ظل الاحتلال ، وتصوير وضع المرأة الفلسطينية وكيف أنّها لا تزال أسيرة العادات والتقاليد وخاضعة للرجل ، لم تنل أيّ حقّ من حقوقها رغم بطولاتها وتضحياتها سنوات الانتفاضة ، ورغم التحوّلات الكبيرة التي ألّت بالشعب الفلسطيني سنوات الاحتلال الطويلة . وفي هذا نجحت الكاتبة .

ولكن هل قدّمت لنا رواية بحجم وقيمة روايات كبار الروائيين ؟؟

الجواب : لا . والسبب في اعتقادي أنّها انطلقت من البداية بهدف اسماع صوتها وطرح موقفها ولم تترك لخاصيّة الابداع الحريّة في الانطلاق والتصرّف ، فقد استحضرت الشخصيات ورسمت لها أشكالها وانتماءاتها ، قيّدتها وحدّدت تنقلاتها وتصرّفاتها وتفكيرها ، وهذا ترك أثره عليكيفية التّعامل مع اللغة والمكان والزمان .

أخيرا :

بقيت جوانب عديدة تحتاج الى المعالجة والتحليل ، اذا كان في المضمون أو الشكل ، ولكن تظل الحقيقة التي لا يمكن لأحد تجاهلها وهي : أنّ سحر خليفة برواياتها التي أصدرتها حتى الآن استطاعت أت تحتل موقعها في الصفوف الأمامية بين كتاب الرواية في عالمنا العربي ، وأن تنال ، وبحق، احترام وتقدير شعبنا الفلسطيني لها لأنها التي رافقته منذ أيّام الاحتلال الاسرئيلي الأولى ولا تزال ، تصف حالته وترسم معاناته وترفع صوته عاليا .